فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

ومن يرد به خيراً يفقهه في الدين

﴿ قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق ﴾

(مصر الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٢٠ — ١٥ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٣)

﴿ باب المقالات ﴾

﴿ رأي في علم الكلام . وطريقة في اثبات الوحي ﴾

(لعالم عامل وكاتب فاضل)

سلامٌ عليكم أيها القارئون ورحمة الله وبركاته . وانعامه واكرامه .

هذه كلمات قليلة قدمتها لكم على صفحات هذه المجلة النافعة . اشير فيها لبيان شيء من حال علم الكلام وأختمها بذكر طريقة سهلة للسالك قريبة للآخذ في اثبات الوحي .

— الذي دعاني لتحرير هذا —

كيفما التفت الإنسان بحسه أو فكره لا يجد شيئاً إلاَّ وشيء آخر يقابله هو ضد له . وكيفما تقلب لا يلفي نفسه إلا بين شيئين يسمى أحدهما « المحبة » والآخر « النفرة » . وكيفما تحرك فهو إما طالب لما يحب وإما هارب مما ينفر . ياويح الانسان الذي يشتغل مدة حياته بالطلب والهرب . ثم ياويحه حين يرى لما يطلبه طلاّبا كثيرين يزاحمونه وينازعونه . ثم حين يجد نفسه غير مستقلٍ فيما يحب وينفر . يحب شيئاً فيعاتب ، ويكره شيئا فيعاتب ، ثم ياويحه حين يعلم افراد نوعه متضادّين ومتجادلين من أجل التضادّ .

هذا الجدال قد يحتدم بين الاخوة بني النوع من أجل الاحتياج الذي فطروا عليه وقد يكون الاحتياج دواءً مسكّناً من هذا القليل . وطالما شوهدت أشياء مثل الاحتياج تكون داءً ودواءً

من أجل الاحتياج يفرق النوع ويتخاذل ، ومن أجله يلتئم ويتعاون ، وليس كل احتياج منشأه الضرورة بل كثير منه منشأه حب التميز . ومن فضل الخالق أن جعل كلاً محتاجاً ومحتاجاً اليه . المُطعمون محتاجون للكاسين ، والكاسون محتاجون للمطعمين ، والفريقان محتاجان للبانين ، والثلاثة محتاجون للبانين ، والاربعة محتاجون للحافظين ، وعقول الكل محتاجون للآلات ، وآلات الكل محتاجون للعقول ، والكل حريصون على تحصيل [illegible] والكل محتاجون للشاعرين الذين يبثون

الحدود والحقوق، والكل محتاجون مع العمل الى العلم والعلمين، وفي هذا كله حكمٌ عرفها من عرفها. وجهلها من جهلها

ما احوجنا مع هذا الاحتياج والتعاون في لوازم الحس الى التحاب والتعاون في لوازم العقل فيالالاسف لم نر انفسنا الا على هذه الحالة متفرقين وما نحن ابتدعنا التفرق بل كان قبل ان كانت اشخاصنا وسيبقى الى من بعدنا

ليس علينا رفع الخلاف ولا نقوى نحن عليه. ولكن علينا ان لا نزيده كما زاده المتعالمون المطاعون في حياتهم والمتبعون بعد موتهم. اولئك الذين يكدرون على الناس صفاء فطرتهم، ويفسدون عليهم سلامة تصورهم، بل علينا ان نجتهد في تخفيفه وذلك لا يكون الا بصقل العقول من صدإ الاوهام فقليلنا مجاهدة الاوهام واهلها مبلغ جهدنا. وما اجمل هذه من وظيفة نشكر عليها المحيط المقسم المد الذي جعل لنا منها نصيباً. وآتانا عليها عوناً.

واحسن جلاء للعقول هو إزالة سيطرة المتعالمين عنها (فهو الصدأ العظيم) واستعمالها في فهم اسرار الكائنات وحكم الشرائع. وافضل عون لها في بلوغها في هذا السبيل هو الدين الخالص من شوب الناس. ذلك لان البشر منذ القديم كدّروا العقل بتصورات سقيمة في شأن الموجد الاول فالدين يرشد لا سلّم. وحملوا النفوس على عادات قبيحة ضارّة سمّوها عبادات فالدين يهدي لأجمل وانفع. وحمّلوها اثقالاً من القوانين الجائرة فالدين يوحي بأعدل. وزينوا لها اخلاقاً فاسدة فالدين يدل على اصلح.

لكن الناس اصناف مصنفة اكثرهم يميلون لما هو ضد الخير ونحن نفوسهم الى الرذائل الخارجة عن حد الاعتدال في كل شيء كما هو دأب الذين خلوا من قبل. فمن يتمسك بالدين البتة فلا كلام فيه هنا. ومن تمسك

فيه تراهم في مغايرته على نوعين — نوع يغايرونه بالفعل ويتمسكون منه بالاسم وهم الاكثرون ونوع يغايرونه بعلوم يحدثونها يُبصّرون الناس فيها انهم اولياؤه . فأما الذين يغايرونه بالفعل فالوظيفة معهم الوعظ والتذكير . واما الذين يغايرونه بما يحدثونه فالوظيفة معهم وظيفة العاقل مع العاقل في الدعاوي والبيّنات . وتحقّ الحقيقة ويبطل الغلط .

ولما عرفتُ ان الدين كلام يفهمه العاقلون ، ولا يحتمل ما يعزوه اليه المتفرقون ، حرصتُ نفسي على كشف حال كثير من العلوم المحدثة فأقول ماظها وما عليها ليعلم طلّابها ما يضرهم وما ينفعهم . ذلك منذ علمت ان سعادتي في ان اكون مُخلص القلب للمجتمع الانساني ، القائم على ناموس رباني ، وان اكون شاكراً لنعم العاملين بما ينفع الناس ملتئماً مع من عرفوا النعم فشكروها ، او جهلوها فاستعرفوها ، نافراً عمن كفروا بها واستيقنتها انفسهم .

فهذا ما دعاني اليوم لتحرير هذه الكلمات الشارحة رأياً في علم الكلام . وطريقة في إثبات الوحي .

﴿ تمهيد وتقسيم ﴾

هذا الإدراك الذي اوتيه الإنسان لم يقفْ به عند استعراف ما يطْعَمهُ ويكتسيه ويأوي اليه بل ساح به من عالَم الشهادة الى عالم الغيب — من عالَم الحس الى عالم القدس —

يسأل الانسان نفسه بنفسه ما هو الموجد الأول او ما هو الموجود الأول ، منْ صنع هذه الكواكب الزاهرة ، من اوجد هذه البحار الزاخرة ، من انشأ هذه الأرواح العاقلة ، من خلَقَ هذه الاسباب الظاهرة والباطنة ، منْ سوّى هذه الروابط الثابتة ، من صوّر هذه

الصور المتغيرة ، من يدبر هذه الكائنات المتنوعة .

ثم ينتقل من هذا السؤال الى سؤال آخر فيقول : ما هي نفسنا ماهو ادراكنا . لماذا افرادنا متفاوتون فيه . ما هي هذه الحياة التي نحياها . ما الفائدة لنا منها . ما الحكمة الذي سوّى فيها . ما الذي يجب ان نعمله معها . اين تذهب ارواحنا عند اضمحلال هذه الحياة . لماذا نحبها وهي مع قصرها مرّة المذاق . كدرة الموارد . لماذا نتزاحم . لماذا نتجادل . ما السبيل لسلامتنا بعضنا من بعض ؟

هذه الأسئلة وامثالها شغلت فكر هذا النوع من زمن قديم ليس لنا ولا لغيرنا علمه . وما زال الناس ولا يزالون يتساءلون ويتجاوبون فيها هذا الى ما شاء الله . وليس البحث في هذه شأن كل فرد من الأفراد بل هو شأن نفر من كل امة من هذه الأمم المتفرقة . وقد يعقب البحث والتفكر تصور ويعقب التصور عقد . ويحمل العاقد بشيء غيره ان يعتقد كما اعتقد فهكذا تكوّنت نحل الناس وملَلهم .

والذين اشتغلوا بتدوين العلوم قد تقيدوا باصطلاحات خاصة زعم ان بها يمكنهم تعميم فائدتها . واما الذين عرفوا كيف يقرّب العلم من افهام الطبقات المختلفة فيجبون ان تتجافى عباراتهم عن الاصطلاحات مهما امكنهم .

ذكّرني بذكر هذه القضية أني رأيت مدوني هذه المباحث في لغتنا قد تباعدوا بها عن أفهام الأكثرين بكثرة ما جاؤا فيها من الاصطلاحات وهم ما قصدوا الا التفهيم بل زعم بعضهم أن الناس أجمعين مكلفون أن يعلموا علمهم ذلك . ولا بد من أن يزعم هذا ان اصطلاحاتهم يفهمها كل أحد من أهل اللغات المختلفة . ولعل عذرهم أنهم دونوها كما وجدوها على اصطلاح

الباحثين من أمم أخرى . وهو عذر مقبول في الجملة

هذه المباحث يقال لمجموعها في اصطلاح المدونين (فلسفة) وهي كلمة منحوتة من اليونانية قالوا معناها (حُبُّ الحكمة) . ومن أجل شيوع هذه الكلمة بهذا المعنى ظن البعض أن الفلسفة اليونانية هي أول فلسفة ومن أجل أن علم الكلام (الآتي ذكره) يردُّ كثيراً من آراء فلاسفة اليونان كما يرد الفلاسفة بعضهم على بعض ظن أن علم الكلام انما جعل لنقض الفلسفة . والظن الأول يزهقه التدقيق في التاريخ العام للأزمنة القديمة التي يجهل منها أكثر مما يعرف . والظن الثاني يزهقه معرفة أن علم الكلام فلسفة يعرف بها صحة الدين . وليست كل الفلسفة مناقضة للدين حتى يحتاج الدين الى علم به تنقض الفلسفة كما أنه ليس كل كلام أهل الكلام مقبولا عند الدين بل كثير منه مردود بشهادة بعضهم على بعض . والمدقق يعلم أن ليس علم الكلام الا قسمين قسما يجمعون فيه نظريات على طريقة الفلاسفة القدماء يوافقونهم في أشياء ويخالفونهم في أشياء . وقسما يجمعون فيه خلافات ومنازعات بينهم أنفسهم

ويعلم أيضاً أن الدين انتصر بروحه الزكية السالمة من الشوائب قبل أن يجيء علم الكلام ناصراً له وناقضا للفلسفة . ولكي يعلم الناظر ههنا آراء الناس في الإلهيات قبل الاسلام وقبل علم الكلام أذكر نموذجاً يسيراً منها في فصل . ومنه انتقل لعلم الكلام في فصل آخر

الفصل الاول

— الفلسفة الالهية عند الأمم السالفة —

كان الصابئة (وهم طائفة منتبها بلاد فارس منها انفصل ابراهيم النبي الذي هاجر الى فلسطين وتسلسلت النبوة في عقبه) يقولون ان للعالم صانعاً فاطراً حكيما مقدساً عن سمات الحدثان والواجب علينا معرفة السبر عن الوصول الى جلاله وانما يتقرب اليه بالتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلا وحالة وهم ينكرون نبوة البشر ولكنهم يعترفون بعلمهم الأول هرمس (قيل هو ادريس) ويثبتون عالماً روحانيا على نحو ما يسميه الكتابيون الملائكة وقسموا هذا العالم الروحاني الى طوائف منها مدبرات الكواكب التي هي هيا كلها اذ لكل روحاني هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحاني الى ذلك الهيكل نسبة الروح الى الجسد فهو ربه ومدبره ومديره . وربما يسمون الهياكل أرباباً وربما يسمونها آباء والعناصر أمهات . فوظيفة هذه المدبرات تحريك الكواكب على قدر مخصوص ويحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات والحيوان ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلي وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي مع جنس المطر ملك ومع كل قطر قملك

واتخذ هؤلاء صوراً وتماثيل على صور الكواكب وأمثلتها وبنوا لها البيوت وأقاموا لها الهياكل واحتفلوا من أجلها بفروض ومراسيم شرحها ناسب كتب الجدل وكتب التاريخ . وليس غرضنا الا النموذج اليسير

وكان « الزروانية » (وهم طائفة من الفرس) يقولون ان النور أبدع اشخاصاً من نور كلها روحانية نورانية ربانية لكن الشخص الذي أسمه « زروان » شكّ في شيء من الاشياء فحدث « اهرمن » (الشيطان) من ذلك الشك ولهم في ذلك اساطير لم نجوز سردها لقلة فائدتها.

وكان « الزرداشتية » (وهم طائفة فارسية اخرى زعيمهم زرداشت) يقولون ان النور والظلمة اصلان متضادان وكذلك « يزدان » و« اهرمن » وهما مبدأ موجودات العالم وحصلت التراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور المختلفة والباريء تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ند ولا ندويدعي اصحاب (زرداشت) معجزات كثيرة له

وكان (طاليس) اليوناني — الذي تعلم الإلهيات والهندسة والهيئة في مصر وهو اعظم مؤلفي الفلسفة المسماة يونانية — يقول ان جميع ما في الكون لا يخلو عن إحساس ما وانه مملوء بما لا يدركه الطرف من المخلوقات وكلها متحركة ذات ارواح

وكان (فيثاغورس) يقول ان العالم له روح وإدراك وان روح هذا الدولاب العظيم هو الانير فمنه جميع الارواح الجزئية وكان يقول ان الارواح لا تفنى فهي تسيح في الهواء الى ان تصادف جسما فتدخل فيه ولذلك كان يشدد في منع اكل الحيوانات . وادعى فيثاغورس معجزات كثيرة جلها لتأييد مذهبه في تناسخ الارواح ومما فعل انه بنى له تحت الارض حجرة صغيرة وعاهد امه ان تكتب له كل ما يكون ويحدث ففاب فيها سنة ثم خرج فجيئاً أشمث أغبر وجمع الناس واخبرهم انه كان في موت ولا بد ان يبعثوه ويشرع بجميع ما حصل في غيبته فظنوا انه

فوق جميع البشر (تأمل)

وكان (هيرقليس) يقول ان الكون ممتلئ من الجن والعقول وان الإله لما قضى أزلاً بوجود الاشياء تركها لتدبير خلقه (تأمل)

وكان « انكسغوراس » يقول بالعقل الذي يفيض على كل مادة ما يليق بها من الصورة وكان يقول لافراغ في الجوّ بل هو مملوء وان جميع الاجسام تقبل القسمة الى مالانهاية له ولو كان الجسم صغيراً جداً بحيث لو وجد قاسم ماهر وآلة تقسيم لأمكن ان يستخرج من رجل البعوضة اجزاء لو وضعت على الف الف سماء لسترتها من غير تناهيها في نفسها بل لا تزال قابلة للقسمة (تأمل)

وكان « افلاطون » يقول الأصول ثلاثة الإله والمادة والإدراك فالإله يشبه عقل العقول والمادة تشبه السبب الأول للتولد والفساد . والإدراك كجوهر روحاني قائم بذات الإله . كان الناس يلقبون افلاطون بالالهي وكانوا يقولون إن أفلاطون يعرف الإله الحقيقي معرفة جيدة وهذا إما من جودة ذهنه او مما أطلع عليه من كتب العبرانيين (تأمل) ووقع من افلاطون أنه نوع الالهة مراتب ثلاثاً علويين مسكنهم السماء ومتوسطين يسمون جناً كوزراء للعلويين مسكنهم الهواء وسفليين مسكنهم الماء سماهم انصاف آلهة (تأمل) وقال إن جميع عناصر العالم وسائر اجزائه ممتلئة بهذا النوع الثالث وقد يظهرون في بعض الاحيان لأبصارنا ويختفون احياناً . تبع أفلاطون فيثاغورس في تناسخ الأرواح

وكان « ارسطاطاليس » يقول : الأصول ثلاثة العدم والمادة والصورة وعرّف المادة بتعريفين مختلفين سلباً وايجاباً فقال في الاول : المادة هي ما

ليست جوهر ذلك الشيء ولا امتداده ولا عرضه ولا نوعاً آخر من الامور الوجودية العارضة له : وقال في الثاني: المادة هي مبدأ تركيب الاشياء ومنتهى تغييراتها: وليس في الاثنين ما يفيد حقيقتها (تأمل)

وكان « ابيقور » يقول بأن الروح جسمانية معللا ذلك بأنها محركة لاجسامنا مشاركة لها المًا ولذة واننا في حالة ثقل النوم نتيقظ بها بغتة وبها تتغير الواننا على حسب ما يعرض لها من الحركات والاعراض

هؤلاء من مشاهير اليونان الذين تكلموا في الإلهيات وهذه مشهورات من آرائهم فيها (وأما علومهم الرياضية والمنطقية فليست من صدد موضوعنا ولا تنقضها الالهيات والعلوم الخادمة لها ولا تأمر بنقضها بل بإبرامها لانها لازمة لازمة واما علومهم الطبيعية فلا ننكرها عليهم أيضاً الا ما انكروا فيها الصانع وصنعه)

وكان « اليهود » يقولون نحن ابناء الله واحباؤه ويقولون إن عيسى بن مريم الذي خلق من غير اب زنت به امه واتى من الزنا وخالف بعمله النواميس الشرعية فقتلناه وصلبناه

وكان النصاري يقولون لا بل عيسى هو ابن الله بعثه ليخلص الناس من خطيئة آدم التي لحقت بأولاده وجعله فداء لهم من الخطيئة التي لم يسكن غضب الرب من اجلها ثم اختار أن يكون سكون غضبه وتخليص الناس منه بواسطة اراقة دم ابنه ولا تنس أن النصارى يقولون أيضاً بأصول ثلاثة الاب والابن وروح القدس

وكان العرب أصنافاً منهم من انكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني كما حكى ذلك القرآن عنهم « وقالوا ما هي الا حياتنا

الدنيا نموت ونحيي . وما يهلكنا الا الدهر » اشارة الى الطبائع المحسوسة وقصر الحياة على تركبها وتحللها . فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر

ومنهم صنف أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الاصنام وزعموا انهم شفعاؤهم عندالله في الآخرة وهم الدهماء من العرب الاشرافم منهم

ومن العرب من كان يعتقد التناسخ فيقول اذا مات الانسان أوقتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيراً هامة

ومنهم من كان على ملة ابراهيم كزيد بن عمرو بن نفيل . ومنهم من تهود . ومنهم من تنصر ومنهم من تفلسف وأدرك بعقله الحشر والجزاء قال « قس بن ساعدة » وهو أحد حكماء العرب: كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد . وقال أيضاً : كلا بل هو الله اله واحد . ليس بمولود ولا والد . أعاد وأبدى ، واليه المآب غداً ، : وقال « عامر بن الظرب العدوي » وهو من حكماء العرب أيضاً اني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا الا مصنوعا ، ولا جانياً الا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء ، لاحياهم الدواء ، ثم قال : إني أرى أموراً شتى وحتى : قيل له ، ماذا ؟ قال : برجع الميت حياً ، ويعود اللاشيء شيئاً ، ولذلك خلقت السموات والأرض : وقال علاّف بن شهاب التميمي

وعلمتُ أن الله جازعبده يوم الحساب بأحسن الأدين

— ظهور محمد عليه السلام —

فبينما حال الناس عامة والعرب خاصة على ما قصصناه ظهر « محمد » من العرب بين أظهرهم بهدى عظيم ، ودعا الى صراط مستقيم ، صدّقه

بدعوته الواحد والاثنان، وكذّبه الشعب الكبير المتشعب الى جماجم وبطون وأخفاذ، صدقه من صدقه لنور قذف في قلبه، رأى به وجهه وجه صادق، وخطته خطة مرشد، ودعوته دعوة مويّد من عالم الغيب، وكذّبه من كذّبه لشبهة عنّت له، وحجاب أسدل على بصيرته، ثم صدّقه آخراً من كذّبه أولاً، ولم يفارق هذه الدار وفي جزيرة العرب جماعة مكذبون

كيف آمن جمهور العرب به من بعد أن أورد متعاقلوهم كل شبهة عنت لهم، من بعد أن قالوا ساحر كذّاب، من بعد أن قالوا شاعر مجنون؟ هل آمنوا رهبة من سيفه؟ فكيف أرهب سيف هذا الواحد قلوب تلك القبائل الكثيرة؟ هل آمنوا رغبة في الغنائم؟ فكيف سرى هذا الخاطر الواحد في أفكار الكل بعد ان صدوا أعظم الصدود وحارب بعضهم بعضاً من أجل أن ينصره قوم ويكيده قوم؟

انما آمن العرب بعد حين من دعوته تربصوا فيه ان تظهر لهم أعلام صدقه فظهرت (كما سيظهر لك) ويومئذ دخلوا في دينه أفواجاً، ووفدوا على حضرته زمراً، يبايعونه على التصديق والاتباع، ويستعلمون منه الوظائف والواجبات، ويرجعون عنه بأفئدة مسرورة، وعزائم مشتدة،

أما العقيدة التي كان هذا الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوصي بها فهي أن يشهد الرجل أن «لا اله الا الله» وأن «محمداً رسول الله». كلمة «الله» عند العرب علَم على الخالق كانوا يقولون به ولكنهم لا يعرفون كماله كما يجب فكان منهم من يظن أن الملائكة بناته وان الأصنام شركاؤه في بعض ملكه فعرّفهم أن الله لا يشبه المخلوقات فلا يلد ولا يولد وليس له شريك في الملك ولا اله غيره ولا معبود سواه ولا ينبغي أن يرجى

ويخاف من غيره . فكل هذه المعاني مجموعة في كلمة « لا اله الا الله » وأما الكلمة الثانية فالمقصود منها التسليم بما جاء به في الكتاب والخضوع لما يحكم به ويمضيه واعتقاد أن هذا الكتاب كلام الله أوحاه اليه بواسطة ملك من الملائكة الذين هم خلق مدركون لا يعصون الله تعالى ويندرج في هذه العقيدة الايمان باليوم الاخر

هذه هي العقيدة التي يصير بها المصدّق محمدياً وقد ورد تفصيلها في القرآن كصفات الله تعالى والاحتجاج على المكذبين والوعد والوعيد في الدار الاخرة ويعلم القارئ أن العرب المدعوين لما آمنوا ما كانوا يعلمون القرآن كله لأنه لم يكن قد تم نزولا . بل أكثرهم ما كانوا يعلمون غير الآيات القليلة وكان أعلمهم به (أي الذين يعلمون كثيراً من الآيات) لا يجد في الألفاظ شيئاً غريباً في مدلوله ليتساءلوا عنه ويتباحثوا فيه (الا ماروي نادراً) بل كان هذا التباحث من قسمة الذين أتوا بعيدهم

أتى بعيد عصره أناس قرأوا القرآن فعلموا شيئاً وجهلوا شيئاً . وأناس استعملوا الآراء الناس في الإلهيات من نحو ما قصصناه عليكم وانقسموا فيه فرقتين محبة وكارهة . ثم انقسمت المحبة فرقتين مصوبة ومخطئة . ثم انقسمت المصوبة طائفتين مؤولة للدين على مقتضاها وتاركة له على حاله . ثم انقسمت المؤولة زمرتين معتدلة وغالية . فهذا هو مبدأ نشأة الفلسفة في الإلهيات عند المسلمين وعلى هذا الشكل كان تفرق أهل هذه الفلسفة

الفصل الثاني

— الفلسفة الإلهية عند المسلمين — أو — علم الكلام —

لا يصح أن نقول ان العصر الأول للاسلام كان خالياً من بذور

البدع التي حدثت بعده في الأصول والفروع . نحن لانقول هذا القول لأن أقوال المعاصرين للرسول كثير منها محكي في القرآن ونرى في بعضها مايدل على أنه كمذهب الجبرية وفي بعضها ما يدل على أنه كمذهب القدرية وغير ذلك . ولكننا نقول لم تنبت تلك البذور الا في اواخر أيام الصحابة حين أظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري القول بإنكار اضافة الخير والشر الى الخالق سبحانه . ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزال وكان هذا تلميذاً للحسن البصري . ويحكى أنه دخل واحد على الحسن فقال يا امام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج بهاصاحبها عن الملة . وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان فكيف تحكم لنا بذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل أنا لا أقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو في منزلة بين المنزلين لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل الى اسطوانة في المسجد وأخذ يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمي هو واصحابه « معتزلة »

وقال « واصل » هذا بقول معبد وغيلان في مسألة افعال العباد وانكر مثلهما قضاء الله تعالى وقدره . فسموا « قدرية » (سماهم بهذا خصومهم) . قال ان الباري تعالى حكيم عادل لايجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمرهم به . وأن يحكم عليهم حكماً ثم يجازيهم عليه .

وقال « واصل » واصحابه يستحيل وجود إلهين قديمين ازليين ولذلك نفوا صفة العلم والحياة والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام عن

الباري اي لم يقولوا هذه صفات للباري قديمة ازلية بل ان الله عالم حي قادر وليس علمه ولا حياته ولا قدرته الا ذاته .

هذا رأس الطائفة « المعتزلة » وطالع بعده الشيوخ الذين اتبعوه كتب الفلاسفة فخلطت مناهجها بمناهج الكلام وافردتها فنا من فنون العلم وسمتها باسم « الكلام » إما لان اظهر مسئلة تكلموا فيها هي مسئلة الكلام فسمي الفنُّ باسمها واما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق والمنطق والكلام مترادفان . (كذا قيل)

وتفنن « المعتزلة » في هذه المباحث وزاد الآخر على الاول وتروق كلامهم في أيام المأمون والواثق والمعتصم :

أما مسألة الكلام المشار اليها فهي القول بأن القرآن مخلوق وممن اشتهر بهذا القول جهم بن صفوان وكان هذا جبرياً اي يقول أن العبد مجبور في أفعاله . وهذا المذهب ضد مذهب المعتزلة الذي معناه ان العبد حر في افعاله أي ليس مسلوب الاختيار بإرادة الله وحكمه .

وكان بين « المعتزلة » العلماء المقلين وبين أهل الرواية في كل زمان اختلافاتٌ ومنازعات في مسألة الصفات وكان العلماء النقليون يناظرون الآخرين لا على قانون منطقي بل على طريقة المفتين في الدين . وكان من احسنهم اتقاناً ابو العباس القلانسي والحارث المحاسبي . وجرت مناظرة بين ابي الحسن الأشعري وبين استاذه ابي علي الجبائي في بعض مسائل والزمه اموراً لم يتخلص عنها بجواب فأعرض عنه وانحاز الى النقليين السالكين طريقة السلف ونصر مذهبهم على قواعد منطقية واساسات نظرية فسمّاه ذلك مذهباً منفرداً وهو المشهور اليوم بأنه مذهب اهل

السنة والجماعة . ويظن البعض بأنه بقي في مذهبه بقايا من مقالات اساتذته قبل ان تركهم وهم من شيوخ الاعتزال . وقرر طريقته جماعة من الاذكياء كالقاضي ابي بكر الباقلاني والاستاذ ابي اسحاق الاسفرائيني والاستاذ ابي بكر بن فورك على اختلاف بينهم قليل .

ومن يطالع مقالات المعتزلة بامعان يتبين له ان مقاصدهم التوفيق بين الدين والفلسفة ولم يتيسر لهم ذلك لامرين الاول ان الفلسفة التي طالعوها اكثرها غير صحيحة فلذلك لم تلتئم مع الدين . الثاني ان المقصد الاصلي من الدين هو العمل وهؤلاء افرطوا في الجدل فشطوا عن مقصد الدين كما شط مجادلوهم من الجبرية الخالصة والجبرية المتوسطة والمرجئة .

لكن القوم بما صنعوه في احتجاجاتهم وبما اضطروا مناظريهم ان يقلدوهم في النظر والاستدلال قد رفعوا شأن العقل كما يجب له ووسعوا ميدان نظره وقرروا آداباً مهمة وقوانين محكمة في المناظرة من حيث هي وفي المناظرة في موضوعهم هذا بخصوصه . من اهم تلك الآداب معرفة كل منهم ان مناظره نظيره . وعدم تكفير بعضهم بعضاً لجمود المباينة بالفهم . ولا يفتنك عن تسليم هذا شذوذ البعض عن هذا الادب الشرعي المعتمد على اصل شرعي ، ومن اهم تلك القوانين تقريرهم جميعاً ان الدليل العقلي القطعي يقدم على الدليل النقلي عند التعارض ويستعان له بالمجاز والتأويل لئلا يذهب سدى كذا قال بعض الاذكياء . واقول ياليتنا استفدنا هذه الفائدة التي اشار اليها من غير باب الجدل في الدين . والتجربة ترينا ان هذه الفائدة لم تتم الا في أعقل الباحثين واكملهم قصداً واوفرهم حكمة وليس هؤلاء بكثيرين حتى نقول ان مخالفهم قد شذ . نعم ليس بمنكور

عندي ان صنيعهم ذلك رفع شان العقل وكاد ان يبلغه اشده في هذا الباب ويسير به الى ابواب اخرى من استشراف اسرار الكائنات وحكم الشرائع عامة والشريعة المحمدية خاصة ويومئذ كان يرجى للدين دوام سيره وانتشاره على السيرة الاولى ولكن هو الخطأ في الدين يقف به ويمنع سيره ان كان قوياً ويزهقه ان كان ضعيفاً .

نرجو أن تكون قد عرفت مما تقدم ان مدار الفلسفة الالهية الاسلامية على آراء «المعتزلة» ومناظريهم . أمّا مناظروهم فالمتكلمون من أهل السنة (وأشهرهم الأشاعرة) والقليون من أهل السنة والغلاة من الفريقين كالجبرية والحشوية والمشبهة والمرجئة . والغلو في كل شيء مذموم .

وقد أجلنا هذه الفلسفة عن أن نعدّ في أهلها أولئك الذين يتشيعون لرجل بعينه أو يتعصبون عليه وان عدهم الناس الباحثون في فرق المحمديين . اذ الشرط أن نحكي ماله علاقة بالفلسفة دون مالا علاقة له إلاّ بالهوى والسياسة .

وهذه أول كلمة نوجهها لعلم الكلام وعلمائه متأسفين على اشتغال أفاضل أهل هذه الصناعة من المعتزلة ومناظريهم في هذه المسئلة التي أومأنا اليها . ولئن كان للمتقدمين منهم عذر لأن الزمان زمانها فليس للمتوسطين فضلاً عن المتأخرين وجه من الوجوه المزينة أو سبب من الاسباب الحاملة اللهم الاهوى البعض وتقليد البعض ولا يؤلم قلبي الا المتبعون على عمى الذين نزلوا أنفسهم منزلة القاصرين .

والكلمة الثانية أوجهها لجمهورهم أيضاً على عدم تروي كل منهم في كلام الآخر . لأننا حين التأمل والتروي نجد اختلافهم انما هو على الاصطلاحات دائر . وقلما نجد بينهم اختلافاً عظيماً في حقيقة من الحقائق بل اختلافهم

مع الفلاسفة يمكن القول فيها هكذا أيضا. ولتوضيح هذا نورد ههنا أمثلة:

(١) هل بين العقول السليمة اختلاف في أن الموجودات ترجع الى مبدإ. هل بينها اختلاف في أن مبدأها يجب أن لا يكون قبله شيء. هل بينها اختلاف في أن النفوس مستشرفة دائماً أن تعرف ماهو ذلك المبدأ؛

(٢) ماهو ذلك الشيء؟ ههنا الاختلاف اذا لم يتروّ الناس مع بعضهم واذ تروّوا فلا خلاف. نحلل هذا السؤال الى أربعة: (١) ماهي ذاته (٢) ماهي صفاته (٣) ماهي أفعاله (٤) ما هو اسمه؟. اما السؤال الأول فجواب كل عاقل فيه لا نعلمها. لا يخالف في ذلك عقلاً ملي ولا فيلسوف على اختلاف فرق الملليين والفلاسفة اللهم إلا من لا يتدبرون. واما الثاني فالجواب فيه لا أحدٌ لأنه لم يحسّ، ولا يوصف لأنه لم يعرف، لا يخالف في هذا أيضاً أحد. ومن يصفونه من الملليين لا يصفونه بعقلهم بل يتبعون فيه الوحي ويفوضون الأمر في علمه. ومن يصفونه من الفلاسفة فانما يصفونه بما هو مقتضى وجوده كقولهم: واجب الوجود: بل جعلوا ذلك علماً عليه. وأنت خبير أن هذا ليس وصفاً. وأما الثالث فالجواب فيه ان فعله البدء والتصوير. وهذا لا يخالف فيه أحد أيضاً اللهم الا الجاهلون جهلاً مركباً. ولا يعد خلافهم خلافاً ولا يجدر بعاقل أن يتصدى للردّ على من يقول وُجدت الاشياء بنفسها. وقامت منتسقة لحالها.

جهلنا فلم نعلم حقيقة نفسنا وقلنا بأن الكون قام بنفسه!!!

واما الرابع فالجواب فيه بالاتفاق ان هذا يختلف باختلاف اللغات ولا يعرض هذا الاختلاف للتصور تبعاً للاختلاف في اللفظ كما لا تختلف النفوس في معرفة الأبيض لكون الدال عليه مختلفاً. ولا أرى العقلاء

الا مختلفين على ان اختلاف الاصطلاح كاختلاف اللغة فلا يجب تجافي الملي عن اصطلاح الفيلسوف ولا تجافي هذا عن اصطلاح ذاك . هذه الكلمة تغنيك عن اكثر ما في علم الكلام الذي ولع أهله بتشعيب الاختلافات التي منشأها اللفظ لا التصور كما سترى في الامثلة الآتية وأنت قس عليها .

(٢) كيف بدأ ذلك الشيء غيره ؟ أي عاقل يتجاسر على ادعاء معرفة هذا من طريق العقل على وجه اليقين . هل ثمة من يتجاسر على هذه الدعوى . وهل من يتجاسر عليها عاقل ؟ مع صعوبة هذه المسألة لا تجد الناس سكتوا في جوابها . أما الملیون فقالهم الوحي فقالوا أراد ان يوجد فأوجد . وقال ناس من الفلاسفة نشأ عنه غيره وجوباً (أو عبارة هذا ما قالها) وللفريقين كلام كثير . ولئن سألت الملي هل تعرف ارادته ؛ وهل يمكنك أن تشبهها بأرادتك التي تعرفها ؛ ليكونن جوابه لا ، ولئن سألت الفيلسوف ما الذي أوجب أن ينشأ عنه غيره وهل تعرفه ؛ ليقولن لا اعلم أو يخترع اسماً يجوز ان يكون بمعنى الارادة التي يقول بها الملي ، فكلاهما بالعجز عن الادراك مشتركان ، وعلى وجود غيره بتأثيره (المجهول عندهما) متفقان ، على أن المتكلمين صرحوا بان الارادة القديمة (تلك التي لا يعرفونها) توجب المراد ،

(٣) متى اوجد ذلك الشيء غيره ؟ لم يجب عن هذه المسألة المتفلسفون ولا اللاهوتيون المحدثون . ولكن قال اللاهوتيون (المتكلمون) ان ذلك الموجد قديم وفسروه بأنه غير مسبوق بعدم وان الموجودات حادثة أي مسبوقة بعدم ، وقال المتفلسفون هو قديم وهي قديمة ، وللفريقين كلام كثير ، وهذه المسئلة لا خلاف فيها أيضاً ؛ لأنهم متفقون على أنه أوجدها وعلى انهم يجهلون متى أوجدها ، وما كان للملي أن يقفو ما ليس له به علم

من العقل، ولم يسمح فيه كلاماً من الوحي، فليس في الدين ما يحمله على الخوض في هذه المزالق، وما كان للفيلسوف أن يجزم بشيء لم يقم عليه دليل يقيني، فهما متفقان على العجز هنا إن تقاربا للحق، كما اتفقا على العجز عن معرفة كيف أوجدها،

هذا والملحدون (قلّدوهم وعقلوهم) قد يسألون عن أشياء لا يسأل عنها الفيلسوف الذي لم يتبع ملة. يسأل هؤلاء عن نصوص لا يستطيعون إبقاءها على ظاهرها كالنصوص القائلة ان السموات والارض خلقت في ستة أيام. يقال لهم هل هي أيام مثل التي تعرفونها أم أيام أخرى لا تعرفونها؟ ان قلتم بالاول فالايام هذه انما عرفت بعد خلق السموات والارض. وان كانت النصوص مقدار مدتها دل ذلك على ان هناك مدة وزماناً. وان يقل الثاني (وهو الذي نقوله) فقولوا نعرف انه خلقها ولكن لا نعرف كيف خلقها وفي خلقها، ولم خلقها. وقوله تعالى «ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا اتينا طائعين.»

---

٤) لم أوجد فيلسوف الشيء غيره؟ وهذه محاورة ايضاً للعقل ويقضي أن يجتمعا هنا ايضاً على العجز عن المعرفة. على أن الذي تقول الحكمة خفية يصح ان يقول الفيلسوف مثله «وما اوتيتم من العلم الا قليلا»

---

٥) ما هي صفات تلك التي؟ فلنأجل الجواب مختصراً ولكن هذه المسألة جديرة بزيادة البيان لأن الخلاف العظيم فيها بين المليين انفسهم بين المقلين منهم والمعقلين اولا. وبين المعتزلة من المعقلين والاشاعرة ثانياً. واحب أن أسمي الخلاف الحقيقي هنا كما نفيته بينهم وبين الفلاسفة في الأدلة المارة.

قال النقليون ومتبعوهم من المتكلمين ان الله قديم وعلمه قديم وحياته قديمة وسمعه قديم وبصره قديم وكلامه قديم وارادته قديمة وقدرته قديمة وفعله قديم . وقال المعتزلة هذا يوجب تعدد القدماء فالله ذات مستجمعة لصفات فهو عالم مريد قادر حي سميع بصير متكلم . وهو قديم . وصفاته عينه . وقال الأشاعرة هي امور زائدة على ذاته لاهي عينه ولا هي غيره . ولكل كلمات سموها ادلة معروفة في محلها . ونحن نقول اذا تروّوا فلا خلاف . وتوضيحه ان الكل قائلون هو حي عالم مريد قادر سميع بصير متكلم والكل قائلون ان معنى الحي ذو حياة والعالم ذو علم الى آخره . والكل قائلون هو واحد لا تعدد . فاذا لم يبق الا ان هذه الصفات زائدة او غير زائدة؟ بقي الخلاف لفظياً عند المدققين ولا يلزم من القول بها تعدد القدماء كما توهم البعض . ولا من عدم القول بها نفيها كما توهم البعض وليس للحس هنا مبلغ من العلم ، ولا للعقل سند في الحكم ، ولا في الدين قول يحمل على الجزم

اما الخلاف بين النقليين والعقليين فهو في فهم بعض الاشياء التي وصف بها الباري وبعض الأعضاء التي نسبت اليه وهو في الظاهر خلاف مهم جداً . وقد ظهرت آثاره من القول الى الفعل وخلاصته أن كل طائفة من هذين الفريقين تنقسم طائفتين معتدلة وغالية فنحن لا ننكر وجود الخلاف حقيقة بين الغاليتين منهما ولكن الخلاف بين المعتدلتين نرجعه لا الى شيء . توضيحه ان المعتدلين من النقليين قالوا ورد الوحي بصفات للباري فنحن نقف مع عبارة الوحي وقفة التأدب الحكيم ونصفه بما وصف به لا نفي معانيها ولا نعتقد أنها كالمعاني المخصوصة بالمحدثات وهذه هي طريقة

الصحابة ومن تابعهم عليها (قلت وليس على هذه من غبار) ثم المعتزلون من العقليين قالوا: إننا قد علمنا انه ليس كمثله شيء فعلمنا من هذا العلم ان الكلمات الموهمة تشبيهاً لا يصح اعتقاد معانيها كما يعتقد في المعاني المخصوصة بالمحدثات فاستفدنا لها معاني قريبة راعينا فيها قرائن اللغة وقرائن كلام الوحي (قلت وهذه ايضاً ليس عليها من غبار) ولقد لاح من هذا ان لا خلاف بين الفريقين . غاية الامر أن اولئك احجموا عن ادعاء التفسير وهؤلاء اقدموا ولم يأتوا في تفسيرهم منكراً من القول ولا تباعدوا عن القرائن ولا تعدّوا حدود ما ورد من الكلمات . فهذا لا يعد خلافاً .

اما الغالية من النقليين فاعتقدت الكلمات على ظاهرها وربما تعدتها الى غيرها . وأما الغالية من العقليين فلم تعتقد شيئاً على ظاهره فلاهم منكرون للنصوص ولاهم واقفون معها فقط . وهم مختلفون ايضاً . فالبون انما هو بين هذين الفريقين . وقد اشتبه على الناس الذين لم يعرفوا هذا التقسيم فاعتقدوا بالسلف ومعتدلي الخلف مثل غيرهم . هذا هو تحقيق الامر في هذه المسألة ونحن من الغاليتين براء . ومع المعتدلتين سواء .

(٦) ما هي افعال ذلك الشيء ؟ مر الجواب عن هذا آنفاً مختصراً والكلام هنالك مع الفلاسفة من غير الملليين وأعدناه ههنا لخلاف في الظاهر بين الملليين الفلاسفة ومناظريهم . قال النقليون ومتابعوهم من المتكلمين ان الله تعالى يفعل كل شيء يقع في هذه الدنيا . وقال العقليون إن الله تعالى خلق خواصّ واسباباً واسند اليها الفعل . قلت هذا اصل لمسئلة مهمة . وهي ان الانسان من جملة الأشياء وفعله من جملة الاشياء فعلى رأي الاولين ان الله يفعل الانسان وفعله . وعلى رأي الآخرين ان الانسان يفعله الخاصة التي

خلقها الله . وفعله يفعله هو بالخاصة التي آتاه الله اياها . واقول هل ثمة من لا يعجب من عدم تروي الفريقين في هذه المسألة التي كل كلام فيها يرجع الى نقطة واحدة . ألم يأن للذين آمنوا ان يعلموا ان الله خلق الانسان عاقلا متصرفا في هذه الدار بغيره من جماد ونبات وحيوان . ومحاسباً على عقله وتصرفه . ومهاناً او مكرماً بعمله فليقولوا كيفما شاءوا ان يقولوا . اقام بعضهم بأن الانسان محاسب على عمله ومجزي عليه ؟ أراد المعتزلة ان ينفوا الشرور والقبائح عن الباري فقالوا الانسان هو يفعل فعله . واراد اهل السنة ان لا يثبتوا في الوجود معه فاعلا فقالوا الله هو الذي يفعل كل شيء . إطو المراتب في أعين الاولين ، وابسطها في أعين الآخرين . تجدهم متفقين كاتفاقهم على أن المرء مأخوذ بعمله وهي المرتبة الاخيرة .

وفي هذه المسئلة تولد من البحث غلاة من الفريقين غالية قالوا بالجبر المحض وأفرطوا في تقريره ابتغاء [illegible] غالية قالوا بالاستقلال المحض وافرطوا في تقريره ابتغاء التوصل لفصل الكون عن المكون في كل الشؤن . ويومئذ لا يتقى ولا يرجى ولا يدعى وفي هذا مصادمة لنصوص الدين واسراره . على ما فيه من الرجم بالغيب واتباع الظن المحض الذي لا يليق بالعقلاء لانه يضرهم ولا ينفعهم

في هذه الامثلة الستة قد اوضحنا تصديهم للمجادلة فيما لا خلاف فيه وفيما التبس عليهم من الامر ولا اريد أن اتكلم على اختلافهم في خلود اصحاب الكبائر وعدم خلودهم . بل ولا في اختلافهم في خلود الكفار وعدم خلودهم . واكتفي في هذا الفصل بكلمة خرجت من بيت النبوة قالها احد ائمة اهل البيت وهي « ان الله اراد منا اموراً . واراد بنا اشياء .

حجب عنا ما اراده بنا . وبين لنا ما اراده منا . فالاجدر بنا أن نشتغل ونتعاون فيما اراده منا . ولا نتجادل ونتخاذل فيما حجبه عنا مما أراده بنا .»

هذا والكلمة الثالثة من اللاتي أردنا ان نقولهن او جهها لناس من أهل عصري لا يزالون يحرصون على دراسة الكتب المدونة في علم الكلام ويجتهدون في حلها وتفسيرها . ولا يسمحون لأنفسهم ان ينظروا في غيرها من كتب الفلسفة العصرية . ولا ان يتعدوا حدود ما كتب لهم الاولون من اصطلاحات وتعريفات . وما قرروا لهم وكتبوا عليهم من مذهب واعتقاد . أقول لهؤلاء : [١] ان تلك الكتب كتبت على أسلوب الفلسفة القديمة . والآن قد تغيرت الرسوم ، ودرست الرقوم ، وحدثت بعد تلك العلوم علوم ، فاقرأوا ما تيسر فما وجدتموه موافقاً للدين وهو الاكثر فاحمدوا الله على هذا التوافق ، وما وجدتموه مبايناً فاسعوا في معرفة أسباب التباين . [٢] علم الكلام فائدته على ما قالوا الترقي من حضيض التقليد الى ذروة الايقان وأنتم في هذه الكتب تلتزمون مذهب رجل معين وتحفظون حدوداً وتعاريف ما أنزل الله بها من سلطان . ولا شهد لجملتها العقل بتبيان . فالذي تزعمون الخلاص منه هو الذي أنتم فيه . [٣] ان الشبه التي تقرأونها في كتبكم هذه قد تسمعون خلافها فينبغي ان تكونوا مستعدين للاحتجاج على كل شبهة كما هو مطلوب كم من هذه الكتب وهي لا تفي بمطلوبكم هذا

والكلمة الرابعة أوجهها لناس آخرين من أهل عصري ، دأبهم الاستهداء بالذين ماتوا . أقول لهؤلاء : [١] ان الذين ماتوا لم يختبروهم . ولم تعلموا السبب في كثير من مقالاتهم [٢] ان الناس قد يحدثون مقالات بحسب زمانهم ومكانهم وغرضهم [٣] ان الحكيم

محسوس . وحاله محدود . يقتدر المرء ان يعرف الحكمة في مقالاته والناس منهم مخلصون لاحكمة فى مقالهم ولا سر ولا غرض الا قول الحق وبذل النصح ومنهم ضد ذلك (١) ان أخذ الادلة عن الاحياء المخلصين والاستهداء بهم في دفع الشبه أولى من الاستهداء بالذين لانعلم من أمرهم شيئاً . واعنى بهذا ان يعالج المصريون أنفسهم من بعض الجمود

والكلمة الخامسة أوجهها لناس آخرين من أهل عصري قد قرأوا شيئا من الفلسفة وما قرأوا شيئا من الدين فإمامهم حيارى في الامر وإمامهم مارقون من الملة . أقول لهؤلاء ان طريقة الدين حنيفة سمحة . أركان اعتقاده معرفة ان لهذه الموجودات موجداً هو « الله » . وانه لايشبه شيئا من الموجودات . وانه متصرف فيها مدبر لها . وان الانسان الذي ميزه في عوالم الارض بالعقل مسئول عنده عن عقله وعما عمل بعقله . وان محمداً (صلى الله عليه وسلم) النبى العربى أرسله ليتمم مكارم الاخلاق . ويرشد الناس على الاطلاق . وأركان عباداته ذكر الله تعالى بصلوات خمس في اليوم لتخف الغفلة المهلكة . وصوم شهر في السنة لتغلب النهمة المتعبة، وحج في العمر الى حيث يتلاقى الاخوان في البيت الحرام والمشاعر المعلومة لتأكد الوحدة الملية وتزداد الالفة . وإيتاء الزكاة في الحول للفقراء والضعفاء لتجبر الحاجة المضطرة . وبناء أحكامه على العدل في الحقوق ، وبناء آدابه على الاحسان للمخلوق .

هذه جملة الدين ولا واحد لاتند فروعه عن قيود هذه الجملة فيجدر بكم أيها الاذكياء ان تعرفوا بالدين وأسراره لتجمعوا بين فائدة الفلسفة التي تنور عقولكم ، وبين فائدة الدين التي تزكي نفوسكم . وان سألتموني ما الدليل

على صحة الوحي الذي هو أساس الأديان. وما الدليل على صحة دعوى النبي العربي (صلى الله عليه وسلم) فأقول اني لست بأعلم منكم فتفكروا يظهر لكم هذا الامر العظيم على اني لا أضن عليكم بما علمني مما عرفت

طريقة في اثبات الوحي

اني تفكرت أولا (والانسان خلق متفكراً) في: ماهو العقل الانساني الذي ميزه على الحيوانات المدركة بحواسها فقط بل ماهو الادراك؟ فلم أستطع علم هذا. سألت أعالم الناس الذين اجتمعت بهم من عرب وترك وفرس وهنود وافرنج فلم افد لعلم هذا

رجعت الى آثار الموتى فلبث في الكتب أوراقاً تعد بالآلاف فلم اقف المطلوب. فكنت اعياء عن طلبه سكوناً حالياً. واكتفيت بمعرفة انه قوة عظيمة قد رفعت الانسان الى طبقات الكواكب وهو لم يتحرك لجهتها فأريته بغير عينه بدائع صنعها، واتقان نظامها، وصورة دورانها، وشكل تقابلها بعضها مع بعض. وهبطت به الى طبقات هذا الكوكب الذي هو فيه (الارض) فأريته بعينه وبغير عينه بدائع كونها، وخزائن أسرارها، وانتظام سيرتها، وبصرته انه (أي الانسان) هو سلطان عوالمها، تنقاد كلها لتصرفه، وتصير تحت أمره، فهو المنفرد في الارض بحياة جامعة للعلم (بالشاهد والغائب) والقدرة (على التصوير والتشكيل) والارادة (لما يلزم البدن وما يلزم العقل). الكلام (الذي يبلغ به ارادته للحاضر منه بواسطة الآلة البدنية الطبيعية، وللغائب عنه بواسطة الآلات الجمادية الصناعية، منها هذه الكتابة التي تبلغنا كلام من قبلنا من أهل الادوار، وتبلغ كلامنا للباقي [illegible] وتأتي بعدنا في الاجيال [illegible]

هذا التلغراف الذي يسمع به المشرقي مايريد المغربي في لحظة من الزمان) والسمع (الذي نفهم به إرادة غيرنا .) والبصر (الذي يطبع في فكره صور الاشياء) فبمجموع مزايا هذه الحياة كان له السلطة والتصرف في عوالم هذه الارض تصرفاً تابعاً للنواميس هي فوق ارادته . وفوق سمعه وبصره. وفوق علمه وقدرته . وفوق أمره ونهيه

هذا القدر عرفت بادئ بدء من آثار تلك القوة العظيمة التي هي العقل وبهذا القدر تم لي معرفة ان هذه القوة هي أكمل وأعظم قوة في العوالم الارضية . وان تلك النواميس التي هي فوقها وحاكمة عليها يجب ان تكون من عالم آخر

ما هو ذلك العالم : هذه نقطة ثانية سرح اليها فكري وفي هذه الدرجة وقف عقلي زماناً كثيراً يلتمس الدليل في معراجه هذا ثم اتاه الدليل من نفسه . فقال ان ذلك العالم هو العالم المحجوب عن حسنا المعروف المألوف عند تصورنا . هو عالم الحقائق والنوى والطبائع التي نعرفها بآثارها ونجهل كنهها وذواتها . هو عالم الغيب وهو بحر عظيم لاساحل له والذي ظهر لنا منه نقط قليلة بعد ظهور امثلتها في عالم الشهادة . قال بعض الاذكياء « كنا لا ندرك السر في قيام هذه الكرة في الفضاء ثم علمنا من امثلة ظهرت للحس ان هنالك قوة تمسكها ، لا نرى تلك القوة بأبصارنا ، ولا نسمعها بآذاننا ، ولا نحسها بأيدينا ، ولا نشمها بانوفنا ، ولا نذوقها بفمنا ، ولم تبلغها عقول الاكثرين من المتقدمين والمتأخرين ، واليوم دركها بعض اقطاب العلم البحثين في اسرار الوجود وغرائب ادراكها لعقولنا فصرنا نقول بها . ونلمح بالاسم الذي وضع لها (الجاذبية) وكذلك كنا لا

ندرك السرفي حركتها ثم ظهر . وكنا لانعلم كيف تكونت ومتى تحركت ويدعى البعض اليوم انهم يعلمون ذلك . وكذلك كنا لا ندرك طبائع الأجسام البسيطة والناس اليوم انما يعرفونها بآثارها وبخواصها في البساطة وبعد التركب — كل ذلك يرشدنا الى ان عالم الغيب (اي الأسرار التي حجبت عنا) واسع . وقلة ما انكشف لا ترشدنا الى انحصاره فيها واحاطتنا بمجموعها بل ترشدنا الى ان ما جهلناه كثير بالنسبة الى ما عرفناه وتأمرنا ان نقف عن تعيين طرف لهذا الميدان لذي خولت البصيرة ان تجول فيه وحرم البصر

قلت في فكري ان الانسان محكوم في خلقته لنواميس تُحدث خواطره وخواطرُه متضادة متنازعة كمال التضاد والتنازع . فإما ان هنالك قوتين متضادتين (من جنس القوة التي هي العقل) مسلطتين عليه وتصرفه تابع لنفوذهما على النسبة . وإما ان الأثرين المتضادين منفعلان عن المزاج الإنساني المركب من متضادات . وعلى الرأي الأول فالقوتان إما لهما وجود خارج الجسد . أو لا وجود لهما الا في الجسد . وان وجدا خارج الجسد فالمادة التي تقومان بها اما بسيطة واما مركبة . هذه أسئلة تخطر في بال الذين يريدون ان يتوصلوا للحقائق من طريق كونيتها لا من طريق انسيتها . والعقل السليم يعلم ان هذه الاحتمالات كلها جائزة . والقول بكل واحد ينفع في الدلالة على ان النواميس التي لها نفوذ على الإنسان هي أمور وجودية لها العلاقة العظمى في تفاوت أفراد النوع العاقل هذا التفاوت العظيم الذي بريا رجلا يعلم أفضل شرع وأكمل آداب . ورجلا [illegible] الاختبار والكهرباء وما يفعلان من سحر الالباب بروائع آثارهما وبدائعها . ورجلا يستحوذ على قلوب الألوف المؤلفة ببيان يبديه

ويستنزل النفوس عن محبة الحياة فيقذفها بين القواصف والقوارف . ورجالا كثيرين لا يعرفون من الامر الا حيوانية وموتانا .

ولنا ان نقول ان النسبة بين الانسان وبين من هو دونه محفوظة بواسطة قريبة منه ومن التي هي دونها (كالنبات مثلا هو قريب من الحيوان لنموه مثله ومن الجماد لعدم تحركه بالارادة مثله) ونعلم قطعا ان الانسان على عظمته في الارض غير كامل . أما من حيث الصورة فلفنائها وأما من حيث الخاصة فلتردده في تحصيل مايعتبره سعادة (ولذلك يعيش الانسان في هذه الدار شقيا على كل حال اما بالآلام والأتعاب الجسدية واما بالآلام والأتعاب الفكرية واما بهما معاً) فيجب ان تكون النسبة المحفوظة بالتسلسل مع من دونه محفوظة أيضاً مع من فوقه . وليس في عالم الحس فوقه شيء

في عالم الغيب خالقان متضادان (تضاد المليح والقبيح) لهما علاقة بالانسان كعلاقة الانسان بمن دونه . وعلاقة الانسان بمن دونه هي احتياجه اليها لتكميل خاصته واحتياجها اليه لظهور خواصها فعلاقة هذين هكذا : يحتاجان اليه (بسنة الله في الخلق) لتكميل خواصهما ويحتاج اليهما لظهور خاصته . هذا القدر يكفيني ويكفيك ولا تسلني عن اسميهما وكنهيهما فأني اكره جدا ان يختلف العقلاء بسبب الأسماء وأحب يتقاربوا من مذاهب المعاني ويعتبروا الدلالات عرضاً تابعاً ويتساهلوا مع بعضهم في الاصطلاحات كيلا يكون سبب اختلافهم

أما خاصة الانسان التي يطلب تكميلها مادام حياً فهي التصرف بعوالم هذه الارض . فأما الذين تغلب فيهم قوة محبة الظهر فيلهمون تصفية العقل

الغريزي (القابل للصفاء والكدورة) فتظهر في مرائي أفكارهم صور المعقولات . وتشرق عليهم من عالم الغيب أسرار ومعارف يحسن بها تصرفهم وتحمد آثارهم ويبقى ذكرهم حيا اذا اضمحلت صورهم يوما من الايام

واما الذين تغلب فيهم القوة الاخرى المضادة فتكدر عقولهم وتتشوش بكثرة الوسواس والتردد ويكثر شقاؤهم في طلب المشتهيات المادية ولن تنتهي وحرمانها اكثر من حصولها والم التزاحم عليها والتدابر لا توازيه ولا تسكنه لذتها . فبسوء تصرفهم تذم عقباهم ويموت ذكرهم كما يموت ذكر الانعام التي تحيى زماناً ثم تهلك .

ولما كان الانسان على هذه الصورة من التضاد المحسوس الذي يتبدى في النفس على وجه التردد ثم يخرج وتتادى به الخطوط المتباينة وكان بحكم هذا التضاد منقسما الى ابرار هم أقل وأشرارهم اكثر لم يستغن عن قانون عام عادل وآداب جميلة مهذبة للنفوس ومعينة للقانون وعند قراءتنا في ماضي الانسان نجد ان الله جبر نقصه هذا فاصطفى من البشر اناساً هداهم ، اوحى اليهم ، علمهم شرائع وآداباً كما اقتضته حاجة الناس . وما وجدنا قط امة مرتقية ليست على اساس واحد من اسس الدين الذي جاء به المصطفون .

وهذا التضاد كما هو دليل (اول) على ماذكرناه هو دليل (ثان) على أن الباري تعالى هو المدبر للموجودات . لان تصرف الانسان الذي نوهنا به تصرف ناقص كما هو محسوس ، وتصرف احدى القوتين ناقص ايضاً كما هو معقول ، ولا بد لنا من تصرف اكمل لانه ظهر لنا شيء شاهد ان هنالك فوقه ما هو اكمل والتصرف الأكمل هو لاكمل شيء فيجب ان يكون

هو الباري تعالى رب العالمين . فكان الله تعالى خلق الانسان خلقاً خاصاً مدركا ليعرفه بنفسه وخلق فيه امثلة من الكمال ليعلم كمال الله ويعرف ان يمجده — وهو الغني — بعبارات يستعيرها . واوصاف يستعين بها مما عرف من الكمال المتجلي بنفسه المصنوعة على أبدع مثال في المحسوس، وأقرب منال في المعقول ، ثم ليدل بنقصه على كماله لم يجعله جازماً مستقلا في ارادته ولا دائماً مستمرًا في حياته ، ولا متحدا منتظماً في كلامه ، ولا مجيداً في كل تصرفه، ولا كاشفاً لكل شيء في علمه ، بل لم يجعل افراده وهم واحد في النوع على نسق واحد في الإرادة والحياة والكلام والقدرة والعلم . فكانه اراد ان يبين بهذا التفاوت في الأحوال والدرجات ناقصا منهم وانقص وكاملا واكمل لتجلي برهانه ان له السلطان والملك وبيده الامر كله والحكم

وهو دليل (ثالث) على ان الشرائع والاداب التي جاء بها المصطفون انما هي يوحي منه لانها معرفة به بادىء بدء نصاً على وفق ما تعرف به خلقة الانسان حالا واشارة وهذا اكمل تعريف وهيهات ان يستقل به عقل الانسان الناقص المتردد والتعريف الحق به هو اول ركن من اركان الشرائع التي يراد بها زجر النفوس

و« محمد » ذلك الرسول العربي (عليه الصلاة والسلام) قد لبث في الأميين زمناً طويلا من عمره . ثم ظهر عليهم وهو الأمي بمعارف من عالم الغيب يملأ شرحها على اسلوب الفلسفة دفاتر ، وأتى من القواعد العامة التي تصلح شرعا لكل زمان ومكان بما يملأ التفريع عليه أسفاراً ، ومن الآداب الجميلة بكلمات يسيرة ، بما يعجز أساطين علم الأخلاق عن ترتيب مثلها بدواوين ، قام بالامر وحيداً . وصدع بالهدى على رؤوس

الملأ فقوبل بالرد والدفع . فصبرت نفسه ولم تجزع ، وكبرت همته ولم تصغر ، واشتد عزمه ولم يضعف ، وما زال يخطب ويدعو ، ويؤنب طوراً ويترفق مرة ، حتى انتصر وأمر أمره . وتهذب على يديه جماعة منهم يقوون ان يتسلطوا بسلطاني العدل والاحسان على الأرواح والاشباح وما زال اسمه يسمو ، ودينه ينمو ، حتى طاف المشارق والمغارب ، واستقر في نفوس الاعاجم والأعارب ، فما في دينه من الأدب الرافع ، والنظام النافع ، وما في قومه الذين رباهم وأرشدهم من علو الهمة ، ومضاء العزيمة ، وما في انتشار دعوته في حياته وبعد مماته هذا الانتشار العجيب ، وما في سيرته الخصوصية من الكمال الانساني البديع ، وما في بقاء قرآنه على الحفظ من التبديل ، وما في وعوده التي وعد بها المؤمنين (كتمكنهم في الارض وصيرورتهم خلفاء في الارض) من الصحة ، كل هذه تكفي من سلمت فطرته ، وصحت فطنته ، ان يعلم صحة دعواه ، وفضيلة هداه ، ولا ينكر هذا الا مقلد أو معاند . اللهم صل وسلم عليه ماشكرك الشاكرون ، وذكره الذاكرون

— اليوم الآخر —

بين الفلاسفة والمتكلمين اختلافات كثيرة في امكان الحشر وعدمه وفي وقوعه وعدمه . وفي لزومه وعدمه . وفي كيفيته . ونحن نختم هذه الرسالة بهذه الكلمة :

العقل حين يرى ان الانسان لم يبلغ في هذه الحياة غايته من سبيل الارتقاء . لامن حيث الصورة لأنه يموت . ولا من حيث الحال لأنه في شقاء الطلب والهرب . وفي شقاء التردد بين الحصول والحرمان

والتوفيق والخذلان ، ولا من حيث العقل لانه محجوب عن عالم الغيب ، يخبط الى انه لابد من يوم آخر ليبلغ فيه الانسان غايته من حيث عدم الفناء ، ومن حيث عدم الحجاب ، ومن حيث التخلص من الاضداد ، فينقسم فيه الناس الى صنفين متباينين قسم في جنة نعيم البال وسعادة الرضاء بما كسبوه في حسن تصرفهم ونعم المصير . وقسم في سعير شقاء الحال وشقاء الندم على ما اجترحوه بسوء تصرفهم وبئس المصير .

لتعي هذا أوجهُ حسك وعقلك الى انتهاء الاجسام المركبة الفانية الى اجسام بسيطة باقية سواء رجعت بها الى المبدإ او ذهبت بها الى المصير بتصيير ما . فهذا يرشدك الى امكان ان يرجع الشيء الباقي لاصله مهما امتزج بغيره . والروحيون من الفلاسفة لا يقولون بفناء الروح كما لا يقول الماديون منهم بفناء البسائط . فالروحيُّ ان يلزمه ان لا يستبعد رجوع هذه الروح يوماً من الايام كما جاءت اولا للماهية التي عرفت بها لتبلغ تلك الماهية بهذه الروح في ذلك اليوم غايتها التي اعدت لها . والمادي يلزمه ان لا يستبعد امتزاج تلك البسائط امتزاجا تاماً في يوم آخر كالامتزاج الاول الذي حصلت منه ماهية حي من الاحياء ليبلغ هذا الحي بهذا الامتزاج الثاني (الذي يحصل على كيفية ثانية) في هذا اليوم الاخر غايته التي اعدت له . وعارٌ على من يعلم ان الناس (هذا الجوهر الكريم عندنا) قد استخلص من جنسه الفحم حتى صار كما يرى ان يستبعد ان يُستخلَص الانسان (هذا المخلوق المدرك الكريم عند فاطره تعالى) من جنسه الحيوان . وفريق منه من نوعه الانسان بأعظم من هذا المثال . اما اذا انتقل باليوم الآخر فأين تميز الانسان على الحيوان اذا ماتا مينة واحدة واين تميز

الابرار على الاشرار اذا كان الامر مقصوراً على هذه الحياة .

اقول قولي هذا واستغفر الله وانيب اليه واسأله لي ولكم الهداية والتوفيق الى سبل السلام . اه في رمضان سنة ١٣٢٠ (ع . ز)

﴿ باب شبهات المسيحيين . وحجج المسلمين ﴾

« يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين . ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم وأقوم ... »

قد علم قراء المنار أننا لم نفتح هذا الباب لطعن في دين النصارى أو غيره ابتداء وانما فتحناه لرد شبهاتهم التي ربما تشكك الجاهل بالاسلام في الدين مطلقًا فتفسد أخلاقه ويكون سيئة على نفسه وعلى الناس . ولا غرض لطعن الطاعنين بالاسلام الا هذا التشكيك الذي يحلّ الرابطة الاسلامية ويضعف المسلمين لانه يخرجهم عن كونهم أمة فيكونون أفرادًا منحلين لا جامعة لهم ولا دين ، ولو أنهم كانوا يطمعون في تنصيرهم لكان لهم عندنا بعض العذر . ولكن التجربة أفادت التاريخ ان الملايين من النصارى صاروا مسلمين ولا يوجد بازاء كل مليون من هؤلاء واحد من المسلمين تنصر الا ما كان من أفراد ليس لهم من الإسلام الا وراثة لا تغني عن آبائهم الأولين .

قال السيد جمال الدين الأفغاني الحكيم الشهير (رحمه الله تعالى): ما سبب النبوة ؟ مذهب الدهريين في الهند وعدم الاقتصار على الدعوة